

التأويل ومقتضيات النظر العلمي

د. أحمد عبادي
الأمين العام للرابطة المحمدية للعلماء ـ المملكة المغربية

من أبرز سمات عالمنا المعاصر، التركيب Complexification وذلك على مستوى الأفكار، والمنتجات، والأنساق الاجتماعية والتحولات التي تعرفها هذه الأنساق، وكذا على مستوى التواصل وأنماط العلائق، مما كانت له انعكاسات مباشرة على القناعات والتوجهات الفردية والجماعية في عالمنا.

ويرصد النظر البشري في مكونات هذا العالَم مظاهر تتأبى على الحصر، من صور التشابه والتقارب بين مفردات الكون المحيط بنا ومكوناته، التي تبلغها وسائل المعرفة المتاحة، سواء في مجالات الآفاق الرحبة أو مجال الأنفس المحدد بالذات الإنسانية. فالملاحظة المنظمة كما العفوية، توجه الفكر نحو استنتاج خضوع الوجود لنظام يرسل إشارات ودلالات للعقل البشري، مما يحمل على التأسيس الفكري لنماذج تصورية توحيدية، تتطلع لفهم حقيقة الكون وموقع الإنسان فيه.





لكن هذا التطلع الفطري يصطدم بعقبات كأداء تقف في طريقه، عقبات راجعة إلى أن التفكير بقدر ما يتجه إلى بناء تصور معرفي أكثر شمولية، محاولا رد كل نظام جزئي إلى أصل كلي، لتأسيس نظرة واحدة وموحدة، فإن صعوبات عديدة تعترضه في طريقه لإرساء نموذج معرفي يؤلّف بين مختلف الأنظمة السارية، ويجيب على التساؤلات الكبرى والإشكالات العقلية الحارقة.

ومن الواضح أن الاهتداء إلى الخيارات والقرارات والمواقف الصائبة في هذا السياق الحاضر، تسمه بدوره سمة التركيب، وهو تركيب مشتق في هذه الحالة، من جملة أسباب: في مقدمتها كون المصفوفة الحاضرة غير مسبوقة، فلا يمكن النسج في مجال التعاطي معها على منوال سابق، وثاني الأسباب أن هذه المصفوفة، على عكس سابقاتها التي كانت تسمها الندرة في المعلومات، وعسر الوصول إليها، مصفوفة تطبعها الوفرة في المعلومات، ويسر الوصول إليها، مما أضحى من مولدات الحيرة عوض يكون من مولدات الرشد.

وثالث هذه الأسباب، السرعة البالغة التي أضحت تجري بها التحولات العلمية والعملية والاجتماعية، بحيث ما يكاد المرء في سياقنا المعاصر، يبدأ في الاستئناس بمصفوفة بعينها حتى تضمحل، لتحل مكانها مصفوفة أخرى جديدة غير معهودة.

وهي أسباب مجتمعة، أضحت تفرض أضربا من الاستيعابية والفاعلية والنجاعة والسرعة والمرونة في آن، على نحو غير مسبوق، وهي مهارات وقدرات تضرب بجذورها في ديناميات الجماعة، كما في الأبعاد النفسية والتمثلية للذات والمحيط، كما تتصل بجانب القدرات العقلية، والذكاءات الفردية والجماعية، مما لا يتيسر التعامل معه بجدوى إلا بنظر تأويلي؛ باعتباره أحد المداخل الأساسية الممكّنة من القيام بمقاربات بنائية تكاملية، تجمع بين هذه الأبعاد والجوانب جميعها بتناسق وتكامل.

إن الحديث عن التأويل، يقتضي وعي الذات على سبيل الإفراد والاجتماع، أو بعبارة أخرى، هو وعي يستدعي إعمال جملة آليات استنطاقية علمية، منها ما هو ديني/ اعتقادي، ومنها ما هو ثقافي/ معرفي، ومنها ما هو نفسي/ وجداني، ومنها ما هو تاريخي/ أنتروبولوجي، ومنها ما هو اجتماعي/ سياسي/ اقتصادي.



كما ينبغي أن يستهدف هذا الإعمال، رسم معالم هوية المسترشد الذي يروم تحديد موقعه، في استبصار بقبلته الحضارية، ووجهاته في حال الإفراد والاجتماع نحوها، للانطلاق في وضع استراتيجيات السير الراشد، الساعي والمقترب، عبر هذه الوجهة من قبلته، مع مواكبة هذا السير بما يلزم من معايير ومؤشرات التقويم، الممكّن من الاستمرار الواثق، أو الاستدراك الرّاتق.

ومن الوظيفي بهذا الصدد، استحضار ما سبق التنبيه إليه في العدد الأول من مجلتنا، حيث ازدهرت في الثقافة العربية والإسلامية المعاصرة، العديد من أضرب التأويلية الجديدة، التي عملت على تطبيق بعض مبادئ اللسانيات ومنهجيات التأويل على النصّ القرآني؛ وهي القراءات التي لم تخل من مزالق نظرية ومنهجية، أثارت العديد من الانتقادات والاعتراضات، في حقل الاشتغال بالعلوم الإسلامية.. حيث برز الحديث عن "حدود التأويل" Les limites de l'interprétation في مقابل دعاوى الانفتاح اللامقبول، وعن "المعنى الذاتي وانحراف التأويل" Individual meaning، وعن محاولة إيجاد إجراءات تَعصم المؤوِّل Interpretant والعملية التأويلية من الإفراط والتعسف، وتسهم في تمييز التأويلات المناسبة من غير المناسبة أو الخاطئة mésinterprétations، واشتد البحث عن التأويل المعتدل l'interprétation modérée، سعيا لإرساء قواعد "القراءة المنهجية للنصوص" Lecture méthodique des textes.

إن التمييز بين التأويلات في علاقتها بمقتضيات النظر العلمي والتوظيف الأيديولوجي في سياقنا الراهن، بات يستدعي القيام بدراسات علمية متأنية، وقراءات نقدية لهذه القضايا السالفة وما شاكلها، للوقوف على **أسسها النظرية**، وما يتصل بها من **الأنساق المفاهيمية/ الكلية، والأطر المرجعية/ النسقية، والنواظم المنهجية/ التكاملية، الرؤيوية/ الشمولية**، في استثمار لطاقات النص، **والتجسير بين التطبيقي والنظري** Applied Visioning، وهو ما يشكل سعيا عمليا، يمكن تسميته **بـالجهد التأويلي**.

لا يخفى أن هذا الضرب من السعي، لارتكازه على العمق المرجعي، تمارسه كل حضارة، بما يتناسب مع ارتكازها المرجعي، ومع أصناف الأنزيهات الاستنطاقية



والاستكشافية، التي بلورتها خلال مسيرتها في التعاطي مع مختلف الموجودات والمفردات الذاتية والموضوعية، التي تتضمنها أو تحيط بها.

مما أثمر منهجيات حضارية متنوعة في التأويل، وهي منهجيات تتكامل أو تتباين، بحسب قوّتها الاقتراحية في مراعاة تامة لمقتضيات السياق التاريخي والحضاري، المحدد للعلاقة بين نظرية المعرفة، ومسألة المنهج في صلتهما بالمرجعية.. الأمر الذي يبرز أهمية التشديد على الضوابط اللازم مراعاتها لتبيئة هذه المنهجيات.

إنّ التأويلات الحديثة لم تُؤْتَ من جهةِ الممارسة الفلسفيّة في ذاتِها، وإنّما أُتِيَت من جهةِ التوظيفات الإيديولوجية، المنبنية على إخْراجِ النصوص من سياقاتها ومقاصدِها الكُبْرى.. مما يستدعي بناء أسس ممارسة تأويلية؛ تجعل النص المؤسس في منأى عن أن يكون مجالًا للتزيد والتمحّل والإقحام، أو العبث والتمييع واللهو، وتمكِّن من الفهم الصحيح لكلياته..

ولتحقيق هذه المقتضيات في كل ممارسة تأويلية، تفتح مجلة التَّأْوِيلُ في عددها المزدوج **الخامس والسادس**، ملف: **التأويل بين مقتضيات النظر العلمي والتوظيف الأيديولوجي**.

وإذ تطل مجلة التَّأْوِيلُ من جديد، على الباحثين والمهتمين، فإنها تتغيى من خلال ملف عددها هذا، وضع التوظيفات التأويلية في مجالِها التَّداوليّ السَّليم، وفي سياقِ مَقاصدِه الصّحيحة؛ للإسهام في إنتاج معرفة تأويلية مُتَماسكة، وقِراءة وظيفية نافعة، تستفيد من المَفاهيم التأويليّة الوافدَة وتشارك في تصويبها... كما ترنو التَّأْوِيلُ من جهة ثانية، إلى استيعاب الكسب الإنساني المعاصر، في مجال المنهجيات التأويلية، وما يقتضيه ذلك من بذلٍ لقصارى الجهد النظري، في تبيئة وتأصيل التراث التأويلي الحديث والمعاصر، بما ينسجم والمقومات المعرفية للتصور الإسلامي، وروحه الناظمة. على أمل خط مسارات اقتراحية جديدة، تسهم في إغناء الديناميات البحثية، التي يحفل بها هذا المجال العلمي والبحثي الواعد.

والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات.